أحمد وجدي
في الزحام نتنفس الوحدة
قصة قصيرة

في الزحام نتنفس الوحدة

أحمد وجدي

أيها القارئ الكريم، إليك حديثًا لا كالحديث، وقصةً ليست ككلّ القصص، بل هي مفتاحٌ قد يفتح لك بابًا أُغلق، ونورٌ قد يبدد ظلمةً خيمت.

فاجلس حيث يطيب لك المجلس، وأمسك بفنجان قهوتك الداكنة أو كوب شايك المُعتّق، أيًّا يكن ما تأنس به روحك، ثم أقبل على هذه الكلمات بقلب واعٍ وعقل متفكّر، فإن فيها من العِبرة ما قد يُضيء دربك في رحلة البحث عن ذاتك.

هيهاتَ أن تكون مجرد سردٍ عابر، بل هي مرآةٌ قد ترى فيها انعكاس نفسك، فاقرأها متأملاً، واقتبس منها ما يُضيء لك السبيل!

القاهرة، نوفمبر 1992

كان صوت المذياع في المقهى يُسمع من بعيد، يعلن نبأ وفاة أحد أشهر الفنانين المصريين.

ولكن لم يكن في أحد من الجالسين من يهتم بهذا الخبر، رغم أنه كان حديث المدينة في هذا الوقت.

جلس وجدي في الزاوية البعيدة للمقهى في حي العباسية، ذاك المقهى العتيق الذي تزينت جدرانه بصور قديمة لإسماعيل يس بابتسامته الشهيرة، ونجيب محفوظ وهو يحتسي القهوة، وصور أخرى لشوارع القاهرة القديمة وزحامها.

كانت عيناه شاردتان بين الوجوه المألوفة التي لا يراها كما يجب، والأصوات التي تتخافت في ذهنه وتشرد منه.

لم يُبالِ كثيرًا بنبأ وفاة الفنان، فقد كانت مشاغل الحياة تستهلكه أكثر من أن يتوقف ليتأمل في أمور أخرى.

كان يتذكر أيامه السابقة، حين كانت نظرته للحياة أقل تعقيدًا، وكان كل شيء يبدو واضحًا، كالطريق المستقيم الذي لا يتعرج.

في تلك الأيام، لم يكن يعي كيف يمكن للحياة أن تتغير فجأة، مثلما يتبدل وجه المدينة بين لحظة وأخرى.

الآن، وهو شاب في منتصف العشرينات، يعمل موظفًا في شركة صغيرة، باتت حياته روتينًا بلا معنى؛ يمضي ساعات العمل في تكرار مرهق، ثم يعود إلى شقته الصغيرة التي تسكنها الوحدة.

كل يوم يشبه الآخر، كأنه يعيش في حلقة مفرغة بلا نهاية.

من جهاز المذياع، بدأت أغنية الأطلال لأم كلثوم تتسرب إلى المكان، لتضيف مزيدًا من الحزن إلى الاجواء. "يا فؤادي لا تسل أين الهوى..."

كانت كلماتها تتناغم مع حالة وجدي، كأنها تعبير عن حاله الضائع بين الماضي والحاضر.

في تلك اللحظة، آتى سيد، صديقه الأقرب الذي بدا دائمًا كأنه يملك

الإجابة على كل سؤال، كان يخفي وراء ثقافته الواسعة ألمًا عميقًا. فقد والده في حادث مفاجئ عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وتركه ذلك الحدث مع شعور دائم بأن العالم مكان مظلم، ظل يجمع الكتب الفلسفية ويناقش كل من يشاركه شغفه، وقد تطرق كثيرًا في محادثاته إلى مسألة الحياة والموت.

كان دائمًا يثير تساؤلات في ذهن وجدي حول الأمور التي لا يمكن تفسيرها بسهولة.

سأله سيد، وهو يحدق في عيني وجدي بعمق.

«قل لي يا وجدي، هل فكرت يومًا في معنى الحياة؟»

﴿2﴾

ابتسم وجدي بتكلف، ورد بصوت منخفض:

«ياصديقي كلنا نعرف الإجابة، أليس كذلك؟ الحياة مجرد مسار نمر به، ونسير فيه حتى نصل إلى النهاية. أما الفكرة الحقيقية، فهي ماذا نفعل في هذا المسار.»

نظر سيد إليه بتأمل، ثم قال له:

«لكن المسار ليس هو ما يهم، بل اللحظة التي نعيشها ونحن نسير فيه. الحياة ليست مجرد انتظار للموت، بل هي أن نعيش بكل ما نملك من مشاعر وأفكار. هل تعلم؟ أعتقد أن أغلب الناس لا يدركون هذا.»

أجاب وجدي، وهو يعبث بفنجان القهوة بين يديه:

«ربما، لكن هل يُمكننا حقًا أن نعيش بكل ما نملك؟ هل يحق لنا أن نمتلك هذا الحق؟»

بينما كان يفكر، جاء صوت سيد مرة أخرى ليكسر شروده.

«لا أعتقد أنك فهمت ما قصدته. نحن نعيش في عالم من النفاق، من الظلمات التي تخفي الحقيقة. لا أريد أن أكون جزءًا من هذا العالم الفارغ. ألا تشعر أحيانًا أنك تخدع نفسك بأنك بخير بينما في داخلك شيء ينكسر كل يوم؟ أتعرف، كلنا هنا في المقهى نأتي يوميًا لننسى، لكننا عندما نغادر، تأخذنا الحياة مرة أخرى إلى واقعنا الصعب.»

﴿3﴾

ثم سكت للحظة قبل أن يضيف:

«هل فكرت يومًا في أنني لا أتكلم لأجد إجابة؟ أتكلم لأهرب من أسئلتي.»

توقفت كلمات سيد في ذهن وجدي، كان يعرف تمامًا ما يعنيه سيد، لكنه لم يكن يريد الاعتراف بذلك.

كانت الحياة في القاهرة، على الرغم من صخبها، تشعره بشيء من الاغتراب.

نعم، كان هناك الفقر، والظلم، والأحلام الضائعة، لكن هل كانت هذه هي الحياة حقًا؟ أم أنها مجرد وهم يحاول الناس العيش فيه؟

أخذ وجدي نفسًا عميقًا، ثم رد بصوت منخفض، لكنه حازم:

«الناس هنا لا يفكرون في الأشياء العميقة. هم ببساطة يعيشون في محيطهم الخاص، في دائرة مفرغة من العمل والتسلية والقلق على الغد. أما بالنسبة لي، لا أستطيع أن أكون مثلهم. لا أستطيع أن أقبل بتلك الحياة الباهتة.»

سكت سيد للحظة، ثم ابتسم ابتسامة ضيقة وقال:

«أنت لا تزال تبحث عن شيء يوضح ماهية هذه الحياة، أليس كذلك؟ لكنك لن تجده في هذا المكان.»

﴿4﴾

لم يكن جواب وجدي حاسمًا، لكنه كان يشعر بشعورغريب يراوده. كان سيد على حق، ربما لم يكن بحثه عن المعنى مرتبطًا بالعثور على إجابة تقليدية.

كان بحاجة إلى شيء مختلف، شيء يتجاوز التفاصيل اليومية والمشاغل التافهة التي تسيطر على ذهنه.

شعر كما لو أن بابًا مغلقًا في نفسه بدأ يفتح شيئًا فشيئًا، لم يكن يعرف ما الذي سيكتشفه خلف هذا الباب، لكنه كان يعلم أنه لا يمكنه البقاء في هذا المكان للأبد.

ابتعد وجدي عن المقهى، ولكن في قلبه كان يردد الكثير من الأسئلة. ليس عن الحياة، بل عن نفسه.

ما الذي يمكن أن يجده إذا ذهب إلى أبعد من حدود هذا المكان المزدحم؟ هل يمكن أن يجد معنى لحياته في هذه الفوضى؟

بينما كانت خطواته تتهافت بسرعة على الرصيف المزدحم في شوارع القاهرة، كانت أصوات السيارات والباعة والمارة تتداخل في مشهد لا نهاية له من الحركة.

كل شيء من حوله يتحرك بينما هو لا يزال في مكانه.

كانت أفكار سيد ما تزال تتردد في أذنه، وكأنها تسأله: هل أنت راضٍ؟ هل تستطيع العيش في هذا الزحام دون أن تنقض عليك قسوة الحياة؟

﴿5﴾

توقف وجدي أمام نافذة مكتبة قديمة، متأملًا الكتب المتهالكة التي تملأ الرفوف.

العناوين القديمة كانت تزدحم على الأرفف، بعضها مهدم والبعض الآخر بدا وكأنه لم يُمس منذ سنوات. تساءل في نفسه: هل يكمن الحل في القراءة؟ أم أن الهروب هو ما أحتاجه؟ ولكن، إلى أين يمكنني الهرب؟ الهروب لا يعني سوى الابتعاد عن نفسي.

قرر دخول المكتبة، فربما كان ذلك هو الخيار الوحيد المتاح له الآن. ما إن دخل، حتى استقبلته رائحة الكتب القديمة التي كانت تعبق بعبير الزمن والحكمة المخبأة بين الصفحات.

توجه إلى زاوية هادئة في المكتبة، حيث وجد مجموعة من الكتب القديمة التي تتناول فلسفة الحياة والتجربة الإنسانية.

اختار وجدي أحد الكتب برفق وأمسكه بين يديه. فتح الكتاب على صفحة عشوائية، وتوقف لحظة قبل أن يبدأ في القراءة.

ثم قرأ الكلمات بصوت هادئ:

«وكيف يفرُّ المرءُ من نفسه، وهو بها أينما حلَّ وارتحل؟ أنَّى له أن يظنَّ أن الخلاص في الهروب، وما الهروبُ إلا دورانٌ في فلكٍ ضيِّق، لا يلبث أن يرده إلى حيث بدأ، كالسائر في متاهةٍ لا مخرجَ منها

إلا بالثبات.

كلما ظنَّ أنه ابتعد، وجد أنه لم يبرح موضعه، وكلما حاول أن يُلقي عن كاهله أثقالَ ماضيه، ألفاها مشدودةً إلى قلبه، لا تنفكُّ عنه حتى يُواجهها مواجهةَ الواثق، ويُقبل عليها إقبالَ الصابر المحتسب. وما التغييرُ بمنالِ من اختار الهروب، ولا القوةُ بثمرةِ من ولَّى الأدبار عند اشتداد الخطب، بل هما لمن ثبت في وجه الحقيقة، وإن آلمَت، لمن نظر في عيني نفسه فرأى ما فيها من ضعفٍ وقوة، من خوفٍ وشجاعة، ومن ألمٍ وأمل. فإنما الرجلُ من صادقَ ذاتَه، وقَبِلها بعيوبها قبل محاسنها، فحمل جراحَه لا على أنها نقيصةٌ تُضعفه، ولكن على أنها وشاحُ التجربة، وسِمةُ الناجين من العثرات.

ليست الحياةُ صراعًا أزليًا، ولا نزالًا لا ينقطع، بل هي سعيٌ إلى التصالح مع النفس، إلى العفو عن الماضي دون أن يكون سَيدَ الحاضر، وإلى المُضيّ قُدُمًا وإن غابت عنه كل الإجابات. فإنما

﴿7﴾

يُدرِكُ السالكُ غايته حين يكُفَّ عن الفرار، وحين يوقن أن الكمال ليس في انتفاء النقص، بل في أن يكون المرءُ نفسَه، بضعفه وقوته، بعثراته وانتصاراته، وأن يجعل من كل سقطةٍ درسًا، ومن كل أذى حكمة، ومن كل ظلمةٍ نورًا يَهتدي به في درب الحياة.»

كأنما كانت تلك الكلمات صادرة مباشرة من أعماقه.

شعر بشيء ما يتغير في داخله، كما لو أن الصوت الداخلي الذي كان يحاول الهروب منه بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا.

أدرك فجأة أن ما كان يبحث عنه طوال الوقت لم يكن في مكان بعيد، بل كان في مكان أعمق، في ذاته، كانت الحقيقة بسيطة إلى حد مؤلم: التغيير يبدأ من الداخل.

ابتسم وجدي ابتسامة هادئة، لأول مرة، أدرك أن حياته ليست مجرد سلسلة من الأيام التي تتكرر بلا معنى، وليست رحلة بحث عن إجابات خارجية، بل هي رحلة داخلية عميقة، تتطلب منه أن يواجه ضلاله وأوهامه.

نظَر إلى الكتاب مرة أخرى، ثم أغلقه ببطء، شعر بأن الحياة، على الرغم من ضجيجها وصخبها، ليست سوى مسار طويل للبحث عن الحقيقة.

﴿8﴾

ومن خلال هذا البحث، نتعلم أن نواجه كل ما نخافه، وأن نواجه أنفسنا أولًا.

بينما كان يستعد للقيام، اقترب منه أمين المكتبة، رجل في العقد السادس من عمره، ذو لحية بيضاء وحركة هادئة.

نظر إليه بنظرة تفهم، كما لو أنه قرأ ما في قلبه.

قال بصوت هادئ:

«هل وجدت ما كنت تبحث عنه؟»

نظر وجدي إليه، ثم أجاب بصوت منخفض:

«أعتقد أنني لم أكن أبحث عن شيء، بل عن نفسي.»

ابتسم أمين المكتبة ابتسامة عميقة، وقال:

«كلنا نبحث عن أنفسنا في أماكن مختلفة، ولكن الحقيقة هي أن الإنسان لا يجدها إلا عندما يوقف البحث في الخارج، ويبدأ في استكشاف أعماق قلبه.»

صمت وجدي للحظة، ثم نظر إلى الكتاب في يده.

كان كلام أمين المكتبة يصل إلى أعماقه.

«الحياة مليئة بالضوضاء، يا بني، لكنها تحتاج إلى لحظات صمت لندرك فيها ما نحن عليه، وأين نحن ذاهبون.»

﴿9﴾

أضاف أمين المكتبة، بعد أن تنهد وقال:

«لا تقلق، سيأتي الوقت الذي تجد فيه نفسك، حينما تقرر أن تكون صادقًا مع ذاتك.»

أومأ وجدي برأسه، وهو يشعر بنوع من السكينة يغمره.

ثم همّ بالتحرك نحو الباب.

خرج من المكتبة، لكن هذه المرة، كان قلبه أخف قليلًا.

المدينة كانت كما هي، لكنها بدت في عينيه مختلفة تمامًا، كأنها تتنفس حياة جديدة، كما يتنفس هو الآن.

كان يعرف أن الطريق الذي اختاره ليس مفروشًا بالورود، وأن التحديات التي ستواجهه ستكون قاسية، لكن هذا التحدي هو ما كان يحتاجه ليتقدم، ليعيش الحياة بكل جوارحه.

ففي النهاية، ما الحياةُ إلا امتحانٌ للقلوب، فلا ينالُ رشدَها من فرَّ منها، ولا يَسْلَمُ من غوائلها من توارى عن سننها.

إنما المرءُ عبدُ الحقيقة، فإن جَهِلَها تاهَ، وإن أنكرها ضاع، وإن واجهها كان كمن استضاء بنور الفجر بعد ليلٍ دامس، وكمن ارتوى بعد ظمأ، وعوفي بعد داء.

﴿10﴾

فإن أعظم ما يُبتلى به الإنسان أن يُعرض عن ذاته، وأن يظن أن النجاة في الفرار، وما الفرارُ إلا دورانٌ حول النفس، يُعِيدُ الإنسانَ إلى حيث بدأ، فلا يجد إلا ذاتَه التي هرب منها، وكأنه يفرُّ من ظلِّه في وضح النهار، أو يركض في صحراء لا حدَّ لها، فتبتلعه الرمال التي حسبها طريقًا للنجاة.

ليس في هذه الدنيا ما يستحق أن يُهرَبَ منه، فإن كل ما يفرُّ منه الإنسان يلاحقه كقدرٍ مكتوب، فلا فرارَ من الحقائق إلا بمواجهتها، ولا نجاةَ من الأقدار إلا بالصبر عليها.

فكل ألمٍ هو درس، وكل انكسارٍ هو بداية بناء جديد، وكل ليلٍ مهما طال فلا بد أن يعقبه فجر.

فمن أراد التغيير حقًا، فليلتفت إلى داخله، حيث تكمن بذور النور والظلمة، فإن سقى تلك البذور بما يزكو به القلب، وينير به العقل، أزهرتْ قوةً وحكمةً، وكانت له عونًا على الطريق.

﴿11﴾

فمن ضعفه يُولد صبره، ومن ألمه تُولد حكمته، ومن ظلامه يُولد ضوءه، فلا يكون كمن أُرهِقَه الليل فنام، بل كمن استخرج من سواده فجراً، ومن ظلمته شمسًا، ومن حطامه بناءً أشدَّ وأمتن، فتلك هي سُنَّةُ الحياة، لا يُدرِكها إلا من واجهها بقلبٍ ثابت، ونفسٍ صابرة، وعقلٍ متبصِّر.

تمت بحمدالله.

﴿12﴾

إذا بلغت الغاية من هذه السطور، وكنت ترغب في مدّ يد الحديث إليّ بشأن أي أمر، أو أردت أن تبدي رأيًا أو تعقيبًا على ما قرأت، فلا تتردد، فإنني أُسرّ بسماع رأيك وأُرحب بكل نقاش أو استفسار.

يمكنك مراسلتي عبر بريدي الإلكتروني:

Abie40842@gmail.com

أو عبر وتساب: 0102503172

لقد يسّرت لك سُبل الوصال، فلا تجعل الحواجز تحول بيننا.

وإن كنت ممن يعشقون الغوص في عوالم القصص، فإني أدعوك إلى قراءة "في حافة الطريق"، قصتي التي تجدها منشورة على نفس ذات الموقع.

قد تجد فيها ما يروقك، أو ما يفتح لك بابًا للتأمل، فاغتنمها فرصة، ولنتبادل الفكر والرأي.

مع محبتي وتقديري.

أحمد وجدي.